اللغة في ثقافة الإعـــلام

طلال النوتكي

يتحدثُ نادر سراج، أستاذُ اللسانيات بالجامعة اللبنانية، بيروت، عن تجاذبات اللغة والثقافة والانتماء، ويؤكدُ منذ دُخوله ساحةَ المَقال بأن الثَّقافة والانتماء كما أنّهما يُحملان في صدور الرجال، فهُما كذلك محتاجانِ إلى وعاءٍ يمسكُهما ويحفظُهما للقادمِ من الأجيال، وهذا الوعاءُ لا يكونُ إلا وعاءَ اللغة، وبذلكَ يقدِّم فرضا لا يختلف عليه كثيرون، وهو أن اللُّغةَ أداةٌ وآلةٌ وليست غايةً في ذاتها، ويقدِّم في المقابل أنها ضرورةٌ لا يُستغنَى عنها، فلا قرارَ لثقافة ولا انتماء لا يَجمعه هذا الوعاء، والوعاء بما يحويه يزدادُ تماسكًا وتكاملًا إذا أحدقَ به خطرٌ خارِجيّ، وهذه سُنّةُ الرّوابطِ والعلاقاتِ بينَ البشر بعضِهم، وبينهم والأشياء، كما قال القديم:

وحّدتنَا الخُطوبُ حتّى غدونَا ×× رغمَ أنف الخطوبِ كالبنيان.

وبعد هذ التّقديم، يحاولُ نادر سراج أَن يَضعَ أَصبعهُ علَى ثقوب الإناء محاولًا إيقافَ النّزيف، وَحفظَ ما تبقّى في الداخل من ثَقافة وَهوِية وانتماء، ويرَى أن الجُرحَ الأكبرَ الذي يستنزفُ اللغةَ وماَ وراَءها هو ثقافةُ الإعلام، والتي باتتْ تنخرُ في جسد اللغة، وتَصبَغُ ثيابَها بصبَغ ليستْ لَهَا، والخطيرُ في الإعلامَ أنّه تواصلٌ من طَرف وَاَحدٍ، حيث إنّ معظمَ وسائله تُلقي علينَا بأحِمَالهَا كما تشاء ولا تُتيحُ فرصةَ الرَّد عليها. هَذا التّواصلُ الأُحادَيّ الطّرف يُعمّقُ في شُعورِنَا أنّ تكَراره يُوجِبُ علينَا أنْ نأخذَ بعضَ ما رأيناهُ وسمعناه.

وَلفَهم مقدَارِ تأثيرِ الإعلامِ في تقديم اللغاتِ الأخرى، وإدخال مفرداتهَا في سَياقَات لغتنا، يَعرضُ الكاتبُ "نُبذةً" عن علمَ اللسانيَات، والذي يُعنى بدراسة اللغة لأجل اللغة وعن طريق اللغة، فما هي إلا أصواتٌ تُعُورفَ عليها وَدَرَجَ استخدامُها، وكما يُوكّدُ دي سوسير في كتابه "فصول في اللسانيات العامة" على اعتباطية الرمز اللغوي، يؤكدُ لغويونَ آخرونَ على اعتباطية رابطة الرَمزِ والمَرمُوز، فالسِّمةُ السمعية أساس اللغة، ثم تظهر السيمَيائياتَ لتُحدد إطارًا مُدوَّنًا دقيقًا لهذه الأصوات، ومن هنا يَجزم الكاتب – وأجزمُ معهُ- بأن دراسة اللسانيات تساهم كثيرًا في حفظ اللغة من الانحراف عن طريقها، وتساعدُها علَى تقنين المُدخلاَت الجَديدة عليها، وتفتحُ بابًا أكثر وضوحًا لمن يريدَ دراستَها من غير المتحدثين بها. ومن الطبيعي والمفروض على كل لغة أن تنقل ُخطاها حيثُما انفتحَ باب جديد للمعرفة، وحيثُما لوّحتْ رايةٌ للحداثة، فأيَّمَا لغة ضاقتْ عن حَملِ ما بداخلها من ثقافة وعلم وحداثة، انكسرَ إناؤها وانتهتْ إلى زوال! والتَواطُؤُ مع كل جديد لا يستدعي الانسلاخَ من الذات وتبديلَ الثوب، ولكنه يستدعي الوضوءَ ببعض الجديد وتطويعَه بما يناسب قانونَ اللغة. فإذا ما جَمُدتْ اللغة عَن مواكبة العصر، فإنها بذلك تتخلى عن هَدفها الأعظم، وهو سد حاجاتَ الناس. يُذكَرُ أن الإنجليزَ استعبدوا بعض السّود، واستعملوهم في الحقول، مرّت الشهورُ والسنون والسودُ يتحدثونَ للإنجليز في إطارِ العلاقة والحاجة التي بينهم، فكانت كل تعبيراتهم مأخوذةً من المزرعة، ومن الطّريف أنْ عَبَّرَ أحدُهُم عن مفردَة "اللّحية" بـ "عشب على الوجه.."، لأنّ حاجته حتى تلك اللحظة لم تأخذهُ لأبعدَ من أن يعرفَ "العشبَ.." و «الوجهَ..». وهكذا تَضَعُ اللغةُ إطاراتها مُتساوقةً مع المكانِ والزمانِ والأحداث.

وفي ساحة هذه التجاذبات بين اللغة والثقافَة والانتماء، بين الرغبة في مواكبة العصر ولبس لَبُوسه، وبين الخوف من فقد الهُويّة –أو جزء منها- بفقد اللغة، يَستعرضُ سراج أفكاره للوقوف على "الأعراف" الفاصَل بين الانَغلاقَ والانفتاح، فيقولُ بأن الإعلام يروِّجُ كثيرًا للغَات العالم الحيّة، ويصوِّرُها في عقول النشء على أنها لغات العصر والحداثة والتطور. وكأثرٍ لهذا التصورِ المَغلُوط، يندفع النشءُ لإقحام مفرداتِ وعباراتِ هذه اللغات في حديثهِم وكتاباتهم بلسانهم العربي، بل إن هذاَ التّزيينَ أدى بالكثيرين إلى احتقار العربية وجَعْلهَا في مرتبة لا يمكن أن تُقاَسَ بالإنجليزيةً أو الفرنسية، وقد تحدّثَ لي أحدُهم عن تعليم أبنائه الإنجليزية منذ نعومة أذهانهم، وما أن ذكرتُ له العرَبية حتى قال ساخرًا إنها لن تفعل لهم شيئًا في هذا العصر! وذاكَ لأنّ ذهن هذا وكثيرينَ جدًا أمثالُه، تَرَى في اللغات الأجنبية الطريق الأسهل للتفوق الدراسي والمجتمعي والوظيفي، وزَيَّنَ لهم الإعلامُ سوءَ أفكارهم! وأظنُّ أن أعظمَ ما يمكن أن يشِّكل خطرًا على اللغة العربية هو أن يَعزفَ الناشئةُ عن استخدامها في التّعبيرَ عن دواخلِ نفوسهم ومُعتلَجَات صُدورهمْ، وإذَا ماَ فَعلوا ذلك بلُغَة غَير العربيَةَ، فلا أكثَر منهُ دليلًا علَى رُسُوخَ تلكَ اللغات في قيعانِ صُدورهم، وَطُفُوِّ العربيّة ميّتةً على السّطح.

ومَن الوسائلَ الإعلامية الكبرى التي يتأثر بها الناشئون السّينما و"التلفزيون"، حيث تمطرُهم بسيل من الأغاني والمسلسلات والبرامج، وبلغات غيرِ العربية، فتراهم يرطنون بها، ثم يُدخلونها في حصائلِهم اللَغوية، ويتباهون بها. ولن يقتصر التأثير الإعلامي هنا على اللغة وحدها، بل يَدخُلُ في ذلك السياقات التي تُستخدَم فيها هذه اللغة، حيث هي سياقات خارج سياقات اللسان العربي، والخلاصةُ هي أن تَعوّدَ الأذن العربية علِى أصوات اللغات الأخرى، وإسرافها في رفع الأخيرة وخفض الأولى، منَ شأنه أن يحقنَ العربيةَ بموت بطيء!

وفي منافحته من أجل العربية، أرى أن نَادر سًراج لم ينجح كثيرًا في عرض القضَية، ولم يُقدِّم أي حُلول حَقيقية، وممّا آخذُهُ عليه في مقاله، أَنَّ كونه لسانيًا لا يبرِّرُ له أن يجعل أكثر من نصف مقاله مقدمةً في اللسانيات، ثم يَعرضَ القضية في ما تبقَّى، ثم إنّه لا يملكُ خيطًا واحدًا في الكتاَبة، فتراه يكرّر كثيرًا، كما أنه يحدِّثنا مستنكرًا عن اغترارِ الشباب بمفردات اللغات الأخرى وإقحامهم لها في حديثهم وكتاباتهم، وهو نفسُه يُتْبِعُ المصطلحَ العَربي بمرادفه في الفرنسية، وكأنَّ الكلمة العَربية عندَهُ لا تُوصلُ مَعنَى ما يريد، أو أنّه يتباهَى بمعرفته بمصطلحات هذه اللغات! وهذا أعظمُ ما يمكن أن يهدد العربية، أن يكَونَ المنافحون عنها يعتبرونها غير كافية لإيصال ما يريدون!.

كل هذا يذكرني بمقولة أحدهم: " ما الفائدة أن تعرف النحو معرفة سيبويه ونفطويه، وأن تعرف البلاغة معرفة القزويني وعبد القاهر، ثم إذا كتبتَ وأنشأتَ، كلامُك في طبقة وسطى أو دنيا.."، وأظن أنّا إذا أخرجنا أنفسَنا من النّظرِ في القشور، وغُصنا في عمق اللغة وغرضِها، عندها نستطيعَ أن نستنطقَ اللغة بلسان الشَّاعر:

أنـــا الـبَـحـرَُ في أحـشـــائـه الـــدُّر كـامــنٌ ××
فـهـل ســألـوا الـغـوَّاصَ عَـن صَـدَفـاتـي!

وعندها تكون العربيةُ إناءً يحملُ في قاعهِ الدرَّ، ويلفظُ على السطحِ كل مَوَاتْ!.

tal.fat@hotmail.com